المنشآت الدفاعية في شمال إفريقيا

إن دراسة المنشآت الدفاعية من المواضيع الصعبة خاصة في الفترة الرومانية، نظرا للأمثلة المرجعية القليلة و التي نحصرها في المدن التالية : جيميلاي " مليلي حاليا" (بسكرة) و ديميدي " مسعد حاليا " (الجلفة)، و هذا يرجع أساسا إلى تطور المدن و الشبكة العمرانية. و قبل أن نستهل هذا الجانب من الدراسة، فإنه يتطلب منا النظر إلى الجانب العسكري في الفترة الرومانية. خاصة في الفترة الممتدة بين حكم الإمبراطور نيرفا Nerva (96- 98 ميلادي) و هادريانوس Hadrianus (117-138 ميلادي).

ما يمكن قوله حول شمال إفريقيا قديما، هو أن قطاعات هاته الأخيرة جلبت اهتمام الرومان و أولوا لها أهمية كبيرة، و هو ما تبرزه الكتابة التالية (Lex Hadriana De Rvdibvs Agris). CIL VIII A

من أجل فهم استراتيجية التوسع الروماني و كذا عملية انشاء المدن و شبكة الطرقات، هو بالضرورة إعداد قراءة في عهد الإمبراطور تراجان Trajan؛ حيث يلاحظ ترقية مجموعة من المدن

(leptis Magna / Sousse....) بالنسبة للشريط الساحلي، و لفرض السيطرة و النفوذ في المناطق النوميدية نلاحظ أيضا ترقية كل من القل و سكيكدة و ميلة و زانة و تيمقاد و جميلة ... إلى غاية شمال شرق تونس. و خلال هذه الفترة تم انتهاج السياسة التالية:

- تطويق قطاعات جديدة منها جبال الأوراس و الهضاب العليا، هذا ما سمح بالتحكم في المنطقة و إخماد الثورات بإنشاء أول معسكر في مدينة لمبيز سنة 81 ميلادي.
- انشاء نظم دفاعية ، من بينها سلسلة من نقاط العبور و المراقبة تعرف ب Castella، لم يحدد إلى غاية الآن كل القطاعات أو النقاط الدفاعية ، حيث نسجل محاولة في دراسة لـ : Jean BARADEZ.

أما بالنسبة للإمبراطور هادريانوس Hadrianus، فقد اتبع نفس المنهج و قام بتطويق كل المنطقة، فواصل و أتم السياسة العسكرية للإمبراطور تراجان مع إنشاء مجموعة من الخنادق و القطاعات الدفاعية ، و المثال الحي لذلك منطقة جيميلاي أو مليلي حاليا و التي تعد من بين أقصى النقاط الجنوبية للحدود الرومانية. و يلاحظ أنه بين سنة 125- 132 م تم إنشاء أول معسكر في المنطقة بالإضافة عدد معتبر من نقاط مراقبة تفصل بين منطقة الأوراس و المناطق الصحراوية ، حيث ينسب إلى هذا الإمبراطور انشاء ما يعرف بـ: Fossatum أو الخندق ، و من بين الأدلة الأثرية حول النصوص المهمة لدينا « le discours d'Hadrien »

- المنشآت العسكرية و أنماطها:

على الرغم من أهمية الجانب العسكري المتمثل في الجيش و تنظيمه و الذي ورد في كثير من المراجع خاصة « الجيش الروماني لإفريقيا» لـ:"كانيا" (Cagnat) الصادر سنة 1913 و «الجيش الروماني» لـ:"يان لوبواك" (yann Le bohec) الصادر سنة 1989 .

تختلف هذه المنشآت و تنقسم إلى عدة أصناف و ذلك بحسب مساحتها و تخطيطها و مكان تمركزها، ولكن ما يشترك بينها يكمن خاصة في صلابتها من خلال تقنية البناء المعتمد عليها والمتمثلة في التقنية التربيعية و التي تختلف بدورها بين تلك ذات الحائط الوحيد و ذات الحائط المزدوج، وهدفها يكمن في عاملين رئيسيين (المراقبة و الحماية).

كما أنه لا يخفى علينا بأن المنشآت العسكرية لا تكمن فقط في مختلف البنايات التي سوف نتطرق إليها في عملنا هذا؛ بل توجد أخرى لها أهمية بالغة لا تكمن في المراقبة و لكن هدفها يتجه أساسا نحو العامل الدفاعي؛ يطلق على هذه الأخيرة اسم المنشآت الدفاعية الطولية و المتمثلة في مختلف الأسوار و الخنادق.

- المعسكرات :

تعد المعسكرات من أكبر المنشآت العسكرية من حيث المساحة، فالرومان لم يكونوا الأوائل في تحصين و تنظيم معسكراتهم[1] بل كان هذا الأمر في الحقيقة قبل ذلك بكثير.

"هيجان" Hygin [2] و"فيجاس" Végèce [3] ينصحان دائما بعدم وضع المعسكرات على سفوح الجبال وهذا لتجنب أي هجوم من الأعلى أو رؤية من بعيد ما قد يجري داخل المعسكر، كما أن الكثير من النصوص القديمة كـ:"بوليب" Polybe و "هيجان" يوصون بضرورة إتخاذ المعسكرات لشكل منتظم؛ مربع أو مستطيل، المهم أن يكون تربيعي فقط، أما "فيجاس" فكان مخالف تماما لهذه الفكرة، أين أصر على أن فعالية المعسكر لا تكمن في شكله، بل في تأقلمه مع الأرضية المهيأ عليها.[4] كما أن المصطلح الذي كان يطلق على هذا النوع من المنشآت مهما كان اتساعها، عرف في غالب الأحيان تحت اسم " كاسترا" *Castra* ، ولا يوجد اسم مخصص للمنشآت الواسعة التي يمكن استعاب فيلق بكامله.[5]

وقد قام السيد "لونوار" Lenoire بوضع تصنيف لمختلف أنواع و أصناف المعسكرات تمثلت في :

أ- معسكرات بشكل أوراق اللعب:

---

[1] - **LENOIRE (M.),** Le Camp Romain, p.14.

[2] – **هيجان :** من مساحي الأراضي الرومان (arpenteurs)، عاش في فترة حكم الإمبراطور تراجان.

[3] – **فيجاس :** كاتب روماني عاش في نهاية القرن 4 م و بداية القرن 5 م.

[4] - **LENOIRE (M.),** op.cit., p.p.18-19.

[5] - **LE BOHEC (Y.),** L'armée Romaine sous le haut-empire, p.164.

تعتبر من الدرجة الأولى أين تأخذ الشكل المستطيل ذات هيئات مطابقة للمعسكر النموذجي الموصوف من طرف هيجان ، أين نلاحظ بأنها ذات هايكل ثلاثية tripatites منتظمة حول الحي العام، تتراوح مساحتها ما بين 1 هكتار و 21 هكتار مثل ماهو الحال بالنسبة لمعسكر لمبيز.[6]

ب- **معسكرات مستطيلة بأبراج من الجوانب:**

يعتبر هذا النوع من الدرجة الثانية و هو قريب في خصائصه من الأول ، ذو هياكل ثلاثية أيضا و مبنى رئيسي في مركز القسم الوسطي للمعسكر، و لكن ما يميزه مقارنة بالأول هو وجود أبراج مراقبة بارزة من جميع زواياه، أما نسب الأجزاء الداخلية فهي مختلفة و ذلك بسبب الأبواب التي تكون عامة وسط الجوانب الأربعة للمعسكر، مع العلم أن مساحتها تتراوح بين 1 هكتار و 2 هكتار.[7]

ج- **معسكرات مربعة مع مباني رئيسية و سطية مقابل تقاطع الطريقين:**

يحتوي هذا النوع على أربع بوابات متمركزة وسط الواجهات الأربع للمعسكر، وهو بالتالي يقترب نوعا ما من معسكرات الدرجة السابقة[8].

د- **معسكرات ذات أبراج جانبية و بوابة محمية بواسطة برجين:**

هذا النوع من المنشآت بغض النظر عن طابعه المميز، فهو غير متجانس في خصائصه الثانوي، وهو بدوره ينقسم إلى عدة أنواع منها: المعسكرات ذات أبراج جانبية تربيعية وأخرى دائرية...[9]

هـ- **معسكرات ذات أبراج جانبية و بوابة غير محمية من الخارج:**

هذا النوع مخالف تماما لما سبق ذكره، فهو إن صح القول صغير في مساحته (بين 0,16 و 0,32 هكتار)، و لكنه جد متجانس، مع العلم أن هذا النوع نجده خاصة في المشرق، و هو بدوره ينقسم إلى: معسكرات ذات أبراج جانبية على شكل مروحة وأخرى مربعة.[10]

و- **معسكرات ذات ثكنات في المحيط:**

هذا النوع هو مربع الشكل على العموم، و نظن بأنه يضم مجموعة من المباني بوظائف مختلفة، مخازن ومخازن للأسلحة وسكنات الجنود التي تتكئ عادة على حائط السور ومحاذية لساحة مركزية، هذه السكنات عادة ما تكون بطابقين ومغطاة بسقف يستعمل كطريق وفي بعض الأحيان أرضية من أجل شن الهجومات، كما أنها تحتوي على أبراج جانبية مربعة الشكل بارزة ، وبوابة واحدة في غالب الأحيان مزودة ببرجين مستطيلين أو مربعين بارزين بالنسبة للسور، كما أن هذا النوع ينقسم بدوره إلى ستة أنواع أخرى.[11]

---

[6] - **LENOIRE (M.),** op.cit., p.p.285-286.
[7] - **Ibid.**, p.p.289-292.
[8] -**LENOIRE (M.),** op.cit.,p.292.
[9] - **Ibid.**, p.295.
[10] - **Ibid.**, p.297.
[11] - **Ibid.**, p.298.

2- القلاع :

يعد هذا النوع من المنشآت في حقيقة الأمر من أنواع المعسكرات و لكن أقل حجما، فهناك ما يسمى بالقلاع الدائمة والتي يطلق عيها عموما اسم «معسكرات الشتاء» (Castra stativa, Castra hiberna) أو "هيبرنا" فقط (heberna)، و في المقابل فالتي يطلق عليها "معسكرات الشتاء" (Castra aestiva) هي تلك التي يتم بناؤها بعد كل تقدم نتيجة السيطرة على مختلف المناطق، بحيث تأخذ كمركز للإنطلاق من أجل الحروب أثناء الفترات العصيبة و كذلك للخروج في حملات استطلاعية في المناطق الريفية المجاورة.[12]

3- الكاستيلا (Castella) :

فيما يخص هذا النوع من المنشآت العسكرية فهو بدوره عبارة عن معسكرات صغيرة، فصيغة الكلمة نفسها تدل على صغر حجم الشيء.[13] مع العلم أن الكاستيلوم لم يكن معروف في شمال إفريقيا إلا بعد مجئ الإمبراطور "كاركلا" (Caracalla) إلى الحكم، أين احتلت خاصة المناطق التي كانت تحت سيطرة المستعمرات الرومانية، حيث يمكن تصنيفها والتعرف عليها من خلال نوعين من الوثائق:

أ- النصوص التي تشير إلى أسامي المستعمرات

ب- ظهور الكاستيلا منذ فترة حكم كركلا. [14]

هذه التسمية لا نجدها فقط في المجال العسكري في العالم الروماني القديم، بل ظهرت أيضا في المجال المدني، كما ظهرت في المجمعات الصغيرة التي لا تحمل أي مصف إداري (مستعمرة أو بلدية)، وبالتالي فالمصطلح هنا يأخذ الصبغة القانونية.[15]

4- الحصون:

وقد روعي في اختيار مراكز القلاع و الحصون جانب الفعالية العسكرية و السيطرة على مراكز الخطر، فأنشئت بذلك في ملتقيات الطرق ومعابر القوافل و مسالك القطعان، و كذلك بالأماكن المرتفعة المطلة على المساحات الواسعة، أو تشرف على امتداد أكبر للطريق المقامة عليه، و إذا ماتتبعنا مواقع هذه المنشآت على الخريطة الأثرية نتأكد من أنها كانت موزعة بشكل جعل منها أشبه شيء بالأوتاد القوية في شبكة الطرق و بوابات العبور، الأمر الذي أهل الكثير منها لأن تصبح مراكز استيطان عسكري أو مدني.

---

[12] - **LE BOHEC (Y.),** op.cit., p.164.

[13] - **Ibid.,** p. 164.

[14] - **BENABOU (M.),** la résistance Africaine à la romanisation, p.p. 186- 187.

[15] - **LE BOHEC (Y.),** op.cit., p.164.

5- البورغيس (Burgis)

تلي البورغيس القلاع و الحصون في الأهمية، و هي عبارة عن مراكز الصيانة و حفظ الأمن وأعمال الشرطة والجمارك، كان يقيم بها رجال المليشيا المكلفين بصيانة الطرق و ترميم التالف منها فضلا عن إجراءات الحدود الجمركية و ما يتبع ذلك من أمور متعلقة بالأمن العام، حيث تحتفظ الشواهد الأثرية بالكثير من أسماء هذه المنشآت، منها "بورغوس سبيكولا توروس" (Burgus SpeculaTorius) الذي أنشئ في عهد الإمبراطور "كاراكلا" (211 م – 217 م) بمخنق القنطرة، وبورغوس آخر على مسافة من هذا تدعى مخلفاته بقصر سي الحاج، و "بورغوس أوزينانسي" (Burgus Uzinansi) الواقع غربي مركز بوغار على الطريق المحاذي لسهوب موريطانيا القيصرية،[16] كما أن تسمية هذا النوع لم تشمل فقط الجانب العسكري، بل نجدها قد استعملت من أجل التعريف بهيئة تعتني بالحقوق العامة، أو بمعنى آخر فرع بلدي صغير.[17]

6- أبراج مراقبة: (Turris)

تعتبر هي الأخرى من بين أهم المنشآت الدفاعية في العالم الروماني بصفة عامة، فقد كانت جد كثيرة نظرا لفعاليتها في حراسة الطرق و هو ما تدل عليه شبكة توزعها على جانبي الطريق بكيفية روعي فيها حسن السيطرة على المسافة المحروسة و النظرة الممتدة، حتى أن الحواجز الطبيعية التي تعوق امتداد النظر أو تخفي الطريق، عالج العسكريون الرومان مشكلتها بمضاعفتهم عدد الأبراج ووضعها على أبعاد تمكنها من التشارك في أداء مهمتها،حيث يمكن التطلع على النقاط المختفية وبالتالي التأمين الكلي للطريق.

كانت الأبراج المنتشرة على مسافات معينة تقوم بدور نقل الإشارة المرئية من برج إلى برج إلى أن تصل إلى مركز القيادة الرئيسي، وهذا ما يفسر حسب "محمد البشير شنيتي" تواجد بعض الأبراج بالتلال والربى المطلة على بعضها و الواقعة على مسافات تتيح فهم الإشارة البرقية من البرج المجاور حتى ولو اقتضى الأمر إنشاء أبراج بعيدة نسبيا على مسار الطريق، وبهذا فالبرج كان يؤدي دور الحراسة والاستطلاع ونقل الإشارة العسكرية في آن واحد، مما كان يمكن القيادة العسكرية المتمركزة في الحصون و القلاع الخلفية من الإطلاع عن كثب على تحركات السكان بمنطقتها العسكرية و تتبع ما يجري عبر الطرق، و اتخاذ الإجراءات اللازمة في الوقت المناسب كلما استدعى الأمر ذلك.[18]

---

[16] – **شنيتي (م.ب.)**، شبكة الطرق و دورها في تكريس الإحتلال، أضواء على تاريخ الجزائر القديم _، ص.128.

[17] - **LE BOHEC (Y.),** op.cit., p.165.

[18] – **شنيتي (م.ب.)** ، مرجع سابق،ص.ص.،128-129.

7- المنشآت الدفاعية الطولية:

في فترة متأخرة من الغزو الروماني لشمال إفريقيا ظهر مصطلح جديد إلى جانب المنشآت العسكرية؛ ألا و هو " كلوسورا " Clausura ، هذا الأخير استعمل من طرف بعض الباحثين من أجل الإشارة إلى المنشآت الدفاعية الطولية أو الخطية (Linéaire)، أما البعض الآخر فكانوا معارضين لهذه الفكرة.[19] منهم "رودي" Redé الذي يشير بأنه لا يمكن أن تكون عبارة عن حاجز مستمر.[20]

المصطلح ورد في الكثير من النصوص الكلاسيكية و ذلك منذ النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد، فالكلمة مشتقة من المصطلحين Claudere /Cludere بمعنى " الغلق"، الذي ظهر في فترة مبكرة في إحدى كتابات المقاطعة الطرابلسية المؤرخة بين 244 م- 246 م، أين وظف الفعل praecludere ؛ بمعنى غلق الممر في وجه السكان المحليين بمنشآت دفاعية أطلق عليها اسم السنتوناريوم (Centenarium) .

نجد المصطلح كذلك في الإمبراطورية البيزنطية، ففي القرن العاشر كان يقصد به مقر القيادات العسكرية التي تم وضعها في المناطق الجبلية الحدودية لأغراض دفاعية.[21]

أما فيما يخص المنشآت الدفاعية الطولية أو الخطية الموجودة في العالم الروماني بمختلف أنواعها و أصنافها و تقنيات بنائها نجدها بالتفصيل في عمل "ج.نابولي" (Napoli J.)،[22] أما في الجزائر فهي كثيرة و تتمثل على سبيل المثال في تلك الموجودة في سلسلة بوطالب " قرط الفرعون" .[23]

كما أن جميع المنشآت التي تطرقنا إليها كانت تدخل في إحدى السياسات الرومانية المنتهجة خاصة في المناطق الحدودية و المعروفة باسم الليمس، الذي تم تحديده في الجزائر سنة 1921ميلادي من طرف الجغرافي "إيميل فيليكس غوتيي" (Gautier E.F.) من الأوراس إلى الونشريس التي أصبح يطلق عليها سلسلة الليمس.[24] هذا الأخير نلاحظه بوضوح من خلال العمل المقدم سنة 1949 ميلادي و المنجز من طرف "جون باراديز" (Baradez J.) الذي كان برتبة عقيد في القوات الجوية آنذاك، أين دعم عمله الميداني بالصور الفوتوغرافية و الصور الجوية بالإضافة إلى مختلف المخططات.[25]

---

[19] - **LABORY (N.),** À propos de la signification du mot " clausura" .., p. 898

[20] - **REDDÉ (M.),** Les fortifications Militaires, p. 250.

[21] - **LABORY (N.),** op.cit., p.p. 898- 901.

[22] - **NAPOLI (J.),** Recherches sur les fortifications linéaires Romaines, p.p. 7-116

[23] - **Ibid**, p.408.

[24] - **MAURICE (E.),** La frontière Romaine d'Afrique , p.565.

[25] - **BARADEZ (J.),** Fossatum Africae, p.p.29-162.